

(٩)

فضيلة العلامة العربي الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره

تأويل سورة قريش



جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Interpretation of Quraish (All Creation) تأويل سورة قريش | Fortress

٩ Am’ma Encyclopedia | موسوعة عم الجزء (٩)

Authored by:
The great humane eminent scholar
Mohammad Amin Sheikho
His soul has been sanctified by Al’lah
١٩٦٤-١٨٩٠

فضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

Checked and Introduced by
The Researcher and Thinker
Prof. A. K. John Alias Al-Dayrani

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Published by
Amin-sheikho.com

§§§§

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

محتويات الكتاب

مقدمة ٣
تأويل سورة قريش... ٦

مقدمة

دعـوة للـعـودة للمـائـدة الإلـهيـة السَّـنيَّـة

أيها الإخوة الأعزاء.. هَلُمُّوا بنا معاً لنقرأ عرضاً فريداً به سعادة البشريَّة والإنسانية، بل وكافة ما خلق الله منذ الأزل إلى الأبد لنستعرض قول الخالق العظيم **[إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّمَواتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبينَ أَن يَحمِلنَهَا وَأَشفقنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّه كَانَ ظلوماً جَهُولاً]**[١].

وينطوي تحت كلمة السموات والأرض والجبال ما فيهن من أنفس ومخلوقات، كما تشمل كلمة الإنسان أفراد النوع الإنساني والجان، وتشير كلمة **(إنَّه كَانَ ظلوماً جَهُولاً)** التي جاءت بصيغة الاستفهام الاستنكاري للمدح والإكبار لا لإثبات الظلم والجهل لأنه عرف ما وراء حمل الأمانة من سعادة لا تتناهى فتقدَّم وغامر بحملها.

كان ذلك في عالم الأزل يوم خلق تعالى النفوس وكشف عن برِّه وإحسانه وأظهر كرمه وفضله لما خلق جلَّ كماله ببهاء نوره الخلائق كلها وتجلى عليها جميعها بجلاله وجماله وكمالاته العليَّة، غرقوا في بحور النعيم والهناء والحبور وذاقوا وتمتَّعوا وشهدوا فهاموا بعالي بهاه فكانوا بجنة أكلها دائمٌ وظلُّها؛ وسبحوا في محيطات فضله وعطفه وحنانه، تشرَّبوا الفضل والإحسان والكرم الإلهي لكنهم توقَّفوا وبقوا على حال عالٍ سامٍ واحد، لمَ التوقف وبحور فضله تعالى السرمدية لا انتهاء ولا حدَّ ولاتوقُّف لها؛ لذا لابدَّ من مخطط سام وطريق للثقة تثق النفوس بذاتها برضاء مولاها عنها لتقبل من جديد على ربِّها الكريم الرحيم لترقى بفضله وتنعم بمشاهدات جليلة جديدة وتنتقل في منازل الإقبال على الله من حال إلى حال "بديمومة الرقي والعلو لتنتقل من جنتها العالية المحددة إلى جنة أعلى ثم لجنة أرقى وأسمى بلا توقف من سموّ لسموٍ أعلى ومن جميل لأجمل ومن حسن لأحسن والله تعالى لا نهاية له وجناته وعطاءاته بلا نهاية"، لذا عرض تعالى الخروج للدنيا لكسب طيب الأعمال المبنية على الاختيار والاطلاق، ليكسب المخلوق ثقة بعمله فيقبل من جديد على ربه،

ويرقى بأعماله بالجنان من جنة لجنة أعلى ومن نعيم لنعيم جديد أحلى وأرقى وهلمَّ جرّاً.

نعم تقدمت سائر المخلوقات بالأزل لحمل الأمانة بعد أن عرضها تعالى عليها ثم بيَّن تعالى لها أن حمل الأمانة أي حرية الاختيار بالسير للأعمال أمر ذو خطر عظيم، فإذا كان المخلوق يستطيع بهذا الاختيار أن يرقى بعمله ويصل لمرتبة دونها سائر المخلوقات فهو إلى جانب ذلك قد يهوي به عمله إلى درجة لا يمكن أن ينحط إليها أحد من العالمين.

وذلك إن حملت النفس الأمانة ثم جاءت إلى الدنيا ولم تستنر بنوره تعالى ولم تستهد بهداه، حينما يرسل لها كتاباً يكون نبراساً ومرجعاً لها في أعمالها فكذَّبت به، أي كذَّبت بالدِّين فستخطئ طريق الحق الذي يصل بها للسعادة واليقين، وستكون أعمالها كلها أذى وإضراراً بالخلق فستخسر خسارة كبرى، ستخسر جناتها وسيحرقها تفريطها في جنب الله حريقاً دونه بكثير ألم النار، إذ ستخسر مقامها؛ بتلك اللحظة الحاسمة تقهقرت جميع المخلوقات ورهبت من التقدم لهذا الامتحان الذي به حقاً أعلى وأغلى وأثمن الشهادات والمناصب والمنح والأعطيات جنات عُلا وما تدري نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعين، لكنها رهبت التقدم للامتحان لما قد يتبعه من الفشل والشقاء وإن كان بالنجاح فيه ما فيه من السعادة الكبرى والخيرات.

نعم إن الأنفس كلها أبت حمل الأمانة وأشفقت منها وتقدَّمت لحملها فئة واحدة غامرت مغامرة عظيمة وعاهدت ربَّها على عدم الانقطاع عنه تعالى لتفوز بعد سيرها الحق الصحيح بالحياة الدنيا وهنالك قَبِل ربُّها عهدها وميثاقها وأكبر مغامرتها ووعدها بجنة الخلد إن هي وفت بعهدها.

وهكذا وإثر الخلق المادي والمجيء لهذه الدنيا أناس وفوا بالعهد ونجحوا نجاحاً منقطع النظير وهم السادة الرسل والأنبياء وسيد الخلق صلى الله عليه وسلم، نال المنزلة العلية والمرتبة الأولى فنال ما نال من ربه، وحاز من الجنات ما حاز وأحب للخلق هذا النوال، لذلك توجَّه بالخطاب على

لسان حضرة الله تعالى بسورة قريش وهم كافة الخلائق طرّاً أجمعين والنفوس المكلَّفين وغير المكلَّفين، أي لمن دخل الامتحان ثم تحوَّل وغاص في بحر النسيان ونسي العهد وآلف على حطام الدنيا الزائلة ولمن تقهقر ورهب التقدم لحمل الأمانات، وآلفوا على حال واحد فهم في خضم الفصول الأربعة والليل والنهار دائرون وسادرون وعن الرقي ومعالي الجنَّات غافلون تنبيهاً ووعظاً وحضّاً، حبّاً بهم ليعودوا للعلو والسمو الذي أراده رب العالمين الرحمن الرحيم: ليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع فقد أمدَّهم بما شاؤوا وعليه أصرُّوا من الشهوات فليتطلَّبوا ما شاء لهم من المكرمات من أوجه عالية خيِّرات ما تسمو بهم لأقاصي السموات في مرابع الجنات، فما أكرمك وما أرحمك يارب الخلائق والعباد وما أقسى قلوب المعرضين عن جليل وعظيم إنعاماتك، كم ظلموا أنفسهم وحرموها من تحف المكرمات.

حقّاً حرموها مما لا عين رأت لها مثيلاً ولا أذن سمعت، بل ولا خطر على قلب بشر، فعوداً للحق والعود أحمد. ياقوم أجيبوا داعيَ الله من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولا خلَّة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

تأويل سورة قريش

أتدري إلامَ يُشير مطلع هذه السورة الكريمة أيها الإنسان؟.

وهل تعلم ماذا يريد أن يُثبت في نفسك من معانٍ؟.

إنه يشير إلى عظمة خالق الكون ومربِّيه، إلى تدبيره تعالى وتنظيمه الحكيم، إلى تلك الإرادة العليا التي جعلت من هذا الكون وحدة مؤتلفة منتظمة منسجمة إلى القدرة الإلهية العظمى التي تنقل الكرة الأرضية جارية في هذا الفضاء الواسع اللاَّمتناهي، وأنت محمول على ظهرها ترحل بك من شتاء إلى صيف، ومن صيف إلى شتاء، إلى ضعفك وصغر جرمك، إلى جلال ربِّك وعظمة مسيِّرك، إلى لطفه تعالى في تسيير هذا الكون وتدبير شؤونه، إلى الملك والتربية، إلى العلم والحكمة، إلى عدد عديد من الأسماء الحسنى، وما ذلك إلاَّ طرف يسير مما انطوى عليه قوله تعالى: **{لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}.**

والواقع أن فواتح السور ومطالعها مفاتيح لما انطوت عليه السورة بجملتها، فإن أنت آمنت بالله ورسوله حقَّ الإيمان وأعطيت هذه المطالع حقها من التفكير والتدبُّر، هداك الله تعالى وأراك وهنالك تدرك بعض ما تشير إليه من معنى عميق وسر دقيق، فتعظِّم خالقك وتُكْبِرهُ وتدرك أين أنت ومن أنت في هذا الكون العظيم.

من عرف ربَّه، عرف نفسه، ومن نسي ربَّه نسي نفسه.. وأولئك هم الفاسقون. **[وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ]**(٢).

ففي الكون كله وفي كل مخلوق من مخلوقاته آلاف الدلائل والآيات، وفي القرآن، لا بل في كل سورة من سوره فواتح ومطالع وفصول ومقاطع تشير دوماً إلى تلك الآيات الكونية الدالة على الله تعالى والمعرِّفة بأسمائه، والسمع والبصر والفؤاد وما وهبك الله من حواس وكذلك الفكر: وهو من أعظم ما تفضَّل به عليك ربك، كل ذلك خير معين لك على رؤية

ما في الكون من عظمة، وما فيه من قدرة وحكمة، وما يشير إليه من حنان إلهي ورحمة، فما عليك وقد يسَّر الله لك السبيل، سبيل الهدى إلاَّ أن تنظر في الكون مفكِّراً وتتدبَّر ما في القرآن الكريم من إرشادات وآيات، وهنالك ترى ما في الكون من عظمة، وما في القرآن الكريم من علم وحكمة وتفقه طرفاً من قوله تعالى: **{لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}.**

وإن شئت تفصيلاً لمعنى هاتين الآيتين الكريمتين فاستمع إلى ما سنبيِّنه لك في مطلع هذه السورة الكريمة.

يريد الله تعالى أن يبيِّن ذلك النظام البديع الذي قام عليه الكون، ثم يلفت تعالى نظر عباده ويذكِّرهم بذلك الترتيب الحكيم الذي جعل المخلوقات متآلفة مع تبدُّلات الفصول، فلعلَّهم إن فكَّروا في هذا النظام، توصَّلوا منه إلى الرب المنظِّم، وتعرَّفوا إلى الخالق العظيم الحكيم المبدع، والقرآن الكريم، إذا أنت وصلت إلى الإيمان الصحيح وعرجت في معارج التقوى يبدو لك عربياً مفصَّلاً، لكننا نعرِّفك ببعض ما انطوت عليه هذه السورة فنقول:

الإيلاف: مأخوذة في أصلها من أَلِفَ، يقال: أَلِفَ الحيوان الإنسان، أي: أنس به، وألف المسافر البلد والمكان إيلافاً، أي: تعوَّده، وألف الشيء الشيء، والمخلوق المخلوق، أي: كان بينهما ائتلاف وتجاذب، وآلف الله تعالى البشر رحلة الشتاء والصيف إيلافاً، أي: جعل الله تعالى لهذه الكرة الأرضية وهي تجري بهذا الإنسان في هذا الفضاء، من القوانين والأنظمة ما يؤمِّن لهم كل راحة واطمئنان، فإذا هم قد أَلِفُوا هذه الرحلة إيلافاً لا يجدون أي مشقة ولا يشعرون بأدنى انزعاج واضطراب.

أما كلمة **(قريش)**، فمأخوذة من كلمة **(قَرَشَ)** بمعنى: جمع، يقال: قرش الشيء، أي: جمعه وضمَّ بعضه إلى بعض، وتقرَّش القوم، أي: تجمَّعوا، ومن ذلك سُمِّيت القبيلة التي سكنت مكة من قبل بقريش، لأن أفرادها إذ

ذاك اجتمعوا عند الكعبة حول المسجد الحرام متعاونين على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

وعلى ضوء ما قدَّمناه من شرح لهذه الكلمة نقول:

تشمل كلمة **(قريش)** كل ما تراه عينك في ترابطه وتماسك أجزائه، وجميع ما تدركه مشاعرك في تجمُّعه وتجاذب ذرَّاته، فالكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات، إذا أنت نظرت إلى ما بين أجزائه من إيلاف ومؤالفة، تجده منطوياً تحت هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: **{لإِيلافِ قُرَيْشٍ}.**

وزيادة في الإيضاح وعلى وجه التعميم نقول:

الكون كله وحدة منسجمة تجمَّعت أجزاؤها إلى بعضها وتجاذبت وتآلفت ذرَّاتها، فالنجوم في تجاذبها وتماسكها، والشمس مقرونة إلى الأرض طائفة بها، والقمر مرتبطاً بالأرض منجذباً إليها في دورانه حولها، والأشجار في ترابط أوراقها وثمارها وسيْر الماء في أوعيتها، ودورة الماء في جميع أجزائها، والإنسان في انتظام أعضائه وتناسقها وقيام كل جهاز من أجهزته بوظائفه وافتقار هذه الأجهزة إلى بعضها، هذه الأغذية التي نتناولها في إيلافها مع أجسامنا وتحولها بعد الهضم إلى مواد نافعة لنا وتمثُّلها إلى أنسجة وحجيرات عصبية ولحمية على حسب الأعضاء التي تُساق إليها، ثم الحيوانات في اجتماع أنواعها وحنينها إلى بعضها، وأخيراً لا آخراً، الناس في روابطهم الاجتماعية كلها، الأم مع أطفالها، والزوجة مع زوجها، وأرباب الحرف والأموال في عدم استغنائهم عن بعضهم بعضاً.. كل ما ذكرناه وجميع ما تراه في هذا الكون من انسجام وترابط وانتظام، هو ما تراه تحت هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: **{لإِيلافِ قُرَيْشٍ}** والتي تقول:

هل نظر عبادي لإيلاف هذا الكون وما بينهما من تجاذب وارتباط؟.

هل شاهدوا ما هو عليه من تنظيم بديع وتنسيق حكيم وائتلاف؟.

هل فكَّروا فيما بين مخلوقاته المترابطة المتجاذبة من إيلاف؟.

أي: عبادي انظروا إلى الترابط الموجود في هذا العالم، ودقِّقوا في إيلاف الأشياء الموجودة في هذا الكون.

والآن بعد أن لفت تعالى نظرنا إلى الكون كله في ترابطه وتماسك أجزائه وإيلاف مخلوقاته وتجاذبها، أراد تعالى أن يعرِّفنا بناحية من النواحي الكونية إلى إيلاف الأشياء مع تبدُّلات الفصول بصورة خاصة، لننتقل من المخلوق إلى معرفة الخالق، ومن تعظيم سير الكون إلى تعظيم الإله المسيِّر فقال تعالى: **{إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}.**

والإيلاف: كما رأينا من قبل هو تعوُّد الشيء والأنس به وعدم الإستيحاش منه، وهو انسجام الأشياء ومؤالفتها، والضمير في كلمة **(إيلافهم)**، وتطلق ضمير **(هم)** على العاقل إنما يعني بني الإنسان.

كلمة **(إيلافهم)** جاءت تقول: وهل نظر عبادي لإيلافهم تلك الرحلة، رحلة الشتاء والصيف؟.

والرحلة: هي الانتقال، ولا يقتصر المعنى في رحلة الشتاء والصيف على هذين الفصلين المذكورين، بل يشمل ضمناً الفصول الأربعة كلها، إذ الرحلة هي الارتحال. والارتحال من فصل الشتاء إلى الصيف وبالعكس، يتضمَّن المرور بفصلَي الخريف والربيع ويشملهما، هذه الآية تشير إلى إيلاف الأشياء وانسجامها مع تبدُّلات الفصول. فالنباتات والحيوانات وكذلك الإنسان، بل سائر الموجودات جميعها أيضاً لها انسجام وإيلاف مع الفصول الأربعة، وما يحدث فيها من تغيُّرات، وعلى سبيل المثال نقول:

من الأشجار ما تتساقط أوراقها شتاءً كالمشمش والتفاح، فهذه الأشجار مع رقَّة أوراقها ولطافة نسجها، لولا نومها وتساقط أوراقها ولولا تقبُّض أوعيتها وجمود حركتها في الشتاء، أقول لولا ذلك: لانجمد الماء عند اشتداد البرد في أنسجة أوراقها وهنالك تتفجر أنابيب أوعيتها فلا تقوى

على البقاء وتموت، أَفليس استسلامها للنوم وسقوط أوراقها في فصل الشتاء إيلاف مع هذا الفصل وما يحصل فيه من صقيع وبرد وانجماد.

ولننظر الآن إلى الأشجار التي لا تسقط أوراقها شتاءً، بل تظلُّ دورتها النسغيَّة جارية، وتبقى حياتها وحركة الماء فيها مستمرة كالزيتون والليمون وغيرها من الحمضيات، فنضج ثمار هذه الأشجار شتاءً يقضي بدوام حياتها، وبقاء جريان النسغ فيها. لذلك تجد أوراقها مستورة بطبقةٍ شمعية، أو ليفية الأوعية، وبذا تكون أكثر تحمُّلاً وأشد مقاومة.

أفلا يدلُّ تركيبها الذي هي عليه على إيلافها مع رحلة الشتاء والصيف، أولا تدلُّ تبدُّلات هذين النوعين المذكورين على قوة خفية تزوي الحياة عن النوع الأول شتاءً، وتمدُّ النوع الثاني امداداً متواصلاً، أفلا يدل إيلاف هذه الأشجار مع رحلة الشتاء والصيف على وجود ربٍّ عظيمٍ وخالق قديرٍ وحكيمٍ قائم مشرف عليها!.

أقول: وما ذكرناه عن إيلاف الأشجار ينطبق على الإنسان، فللإنسان إيلاف مع الفصول حرِّها وبردها، ثمارها وفواكهها، وكذلك الحيوانات والمخلوقات جميعها لها إيلاف مع تغيُّرات الفصول، وما ضربناه فإنما هو مثل من الأمثال، وآية من الآيات. **[وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ]**[٣].

فالله سبحانه بما ذكره لنا من إيلاف المخلوقات مع تبدُّلات الفصول يريد توجيهنا إلى التفكير والتأمُّل في هذا الكون، فلعلنا إن فكَّرنا التفكير الدقيق، توصلنا إلى معرفة ربِّنا العظيم، وخالقنا الكريم ومسيِّرنا الرحيم!.

كذلك فإن هذه الآية تريد أن تعرِّفنا بالعظمة الإلهية في التسيير، إنها تريد أن تلفت نظرنا إلى الفُلك المشحون، وأعني به الكرة الأرضية التي تسبح بنا في هذا الفضاء الواسع متنقِّلة، مرتحلة من صيف لشتاء، ومن شتاء لصيف.

إنها تريد أن تعرِّفنا بذلك التنقُّل وذلك النظام الذي تتولَّد معه الفصول الأربعة، بذلك اللطف للتسيير الإلهي الذي لا نشعر معه بما يقلقنا في سفرنا، ولا نشعر معه بما يتعبنا في رحلتنا، فإذا الأرض على ثقل وزنها وكبير حجمها وهائل سرعتها تمرُّ بنا مرَّ السحاب بلطف وهدوء، وإذا البشر المحمولون على ظهرها يروحون ويغدون إلى أعمالهم براحة واطمئنان.

إنها تعرِّف الإنسان بضعفه وصغر حجمه، إنها تعرِّفه بعناية ربِّه وعظمة خالقه وبالغ قدرته تعالى ولطفه في تسييره، وما ذاك كله إلاَّ ناحية من النواحي التي اشتملت عليها آية: **{إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}.**

فهلاَّ نظرت أيها الإنسان إلى هذا مُفكِّراً فيه بعض التفكير؟.

هلاَّ تساءلت قائلاً: من الذي يسيِّر هذا الفلك المشحون الذي أنا محمول عليه ينقله في ذلك الخضم الواسع، وبتلك السرعة الهائلة، وبذلك النظام الدقيق من الصيف إلى الشتاء، ومن الشتاء إلى الصيف؟.

هلاَّ قلت لنفسك: من الذي جعل الأرض على هذا الوضع المعيَّن، وبهذا الميل المقدَّر بصورة تتولَّد معها الفصول الأربعة، فينتقل الناس من خريف لشتاء ومن ربيع لصيف؟.

هلاَّ سَمِعتْ نفسك قول الملَك يناديك من الذي جعل لهذه الأرض تلك السنن والقوانين، هلاَّ فكَّرت أيها الإنسان بهذا ونظرت إليه؟.

هلاَّ كنت أرقى من ذلك المخلوق الذي لا يعرف سوى مطعمه ومشربه فقلت لنفسك أين أنا في هذا الوجود، ومن أنا في هذا الكون، وما هذه اليد العظيمة التي خلقتني وأوجدتني، وهي تُعنى بي هذه العناية وتُربِّيني هذه التربية وتُسيِّر مركبي هذا التسيير اللطيف؟.

هلاَّ نظرت أيها الإنسان.. لإيلاف أجزاء هذا الكون مع بعضها بعضاً، ولإيلاف هذا النوع البشري المحمول على وجه الأرض مع رحلة الشتاء والصيف.

ألا يا عبادي انظروا إلى إيلاف المخلوقات مع تبدُّلات الفصول، تجدوا أن لهذا الكون ربّاً عظيماً ومسيِّراً حكيماً يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، وقد سيَّرَ هذا الكون كله ضمن الحكمة والرحمة وبما يعود على الكون وعليك بالخير والمنفعة.

إذا أنت نظرت إلى هذا وعرفت خالقك ومُربِّيك وآمنت بهذه اليد العظيمة التي تُسيِّر هذا الكون العظيم من بعد أن بيَّن تعالى لك ما يدلُّك على وجوده وعظيم حكمته أراد أن يدعوك إلى عبادته أي طاعته والسير ضمن هدايته ودلالته فإن شئت الهداية والسعادة فاستمع إلى ما يأمرك به وما يُمليه عليك به في قوله الكريم: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}.**

وممَّا يؤكِّد ما قدَّمناه من شرح وما أسلفناه من بيان أن ترد الفاء في كلمة **(فليعبدوا)** رابطة للجواب على حد تعبير النُّحاة، ويكون مجمل ما نفهمه من هذه الآية الكريمة مقرونة إلى ما قبلها:

إن نظر عبادي لإيلاف المخلوقات في هذا الكون، وتعرَّفوا من وراء ذلك إلى علمي وحكمتي، وإن هم نظروا إلى هذه الأرض التي ترحل بهم في الفضاء وأدَّى بهم ذلك إلى رؤية طرف من كبير قدرتي وعظيم تسييري ولطيف رحمتي.

وبكلمة وجيزة: إذا نظر عبادي لإيلاف قريش وإن هم نظروا لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف وتوصَّلوا من ذلك إلى معرفة عظمتي ومشاهدة تسييري لهذا الكون وبالغ عظمتي **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}.**

نعم لقد جاءت هذه الفاء لتربط مفتاح السورة الكريمة بما بعدها، ولتُبيِّن لك أن المراد بالآيتين الأوَّليتين دعوة الإنسان إلى التأمُّل والتفكُّر، فلعلَّه إن نظر وفكَّر يُشاهد طرفاً من الجلال والعظمة الإلهية، ولعلَّه إن نظر

وفكَّر يرى التسيير الإلهي، وقد خالطه الحنان واللطف ومازجته الرأفة والرحمة.

ولعلَّه إن نظر وفكَّر يتوصَّل إلى الإيمان بكلمة **(لا إله إلا الله)** فيرى تلك اليد العليمة الحكيمة التي تُسيِّر هذا الكون كله بما فيه من مخلوقات، تسييراً لطيفاً وتُشرف عليه إشرافاً دقيقاً وهنالك تخضع النفس لله تعالى طائعة فتعبده حقّ العبادة.

والحقيقة أن النفس البشرية مفطورة على تقدير الكمال، مطبوعة على الخضوع لصاحب العظمة والجلال، مجبولة على حب من ترى منه العطف واللطف والإحسان كائناً من كان، تلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لهذا القانون ولا تغيير.

فإن أنت أردت لنفسك سلوكاً في طريق الإيمان بالله، وإن رمت لها سمواً وتقدُّماً في هذا المضمار، فما عليك إلاَّ أن تدعوها إلى التأمُّل والتفكير، وتُبصِّرها آناً بعد آن فيما يقع عليه نظرها من مخلوقات وما في هذا الكون من آيات.

عليك دوماً أن تُثير خامد تفكيرها.. وتبعث جامد نظرها.. وتُحرِّك ساكن تأمُّلِها.

عليك أن تقول لنفسك: ألا تنظرين، ألا تفكِّرين، ألا تتأمَّلين، ألا تُدقِّقين، ألا تقولين: من الذي أوجد هذا العالم وجعله على هذا النظام المحكم؟. ألا تعجبين لإيلاف ما في الكون من مخلوقات، ألا تُعظِّمين هذه اليد التي تُسيِّر الكرة الأرضية على هذا النظام الدقيق في هذا الفضاء العظيم، تسييراً لطيفاً هادئاً لا يُعكِّر صفوه مُعكِّر ولا يكاد يشعر به إنسان، ألا تقولين مُتسائلة من أنا؟. وأين أنا؟. وكيف صرت أنا وما كنت من قبل شيئاً مذكوراً؟.

عليك أن تُطيل النظرات، وتُواصل التأمُّلات، وتُري نفسك كم في هذا الكون من آيات، كم فيه من لطائف الحكمة ودلائل القدرة، وشواهد الرأفة

والرحمة وعجائب الخلق المشيرة إلى دقة الصنع وبالغ العلم والخبرة، فإن استطعت أن تُريها وتُبصِّرها، وإن أنت توصَّلت إلى الأخذ بيدها إلى مشاهدة العظمة الإلهية، ورؤية الحكمة والعلم والقدرة، والتحقُّق بالإمداد الدائم والتربية، والتعظيم لذلك الإمداد الإلهي الدقيق الذي تقصر العقول عن إدراك حد له أو نهاية.

أقول: إن أنت توصَّلت إلى إراءتها طرفاً من هذا، فهنالك تُطأطئ خاضعة لله تعالى ساجدة، وتُذعن لربِّها مُستسلمة، وما إسلام النفس الحق إلاَّ من بعد رؤيتها وشهودها، فإن هي رأت وشاهدت خضعت وأذعنت، وما هي بمُذعنة ولا خاضعة إلاَّ إذا رأتْ وشاهدت، ذلك كله إنما يُعرِّفنا بالحكمة الإلهية التي جعلت مطالع السور وفواتحها تُشير إلى آيات الكون وعظمتها، وذلك كله إنما توحي به آية: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}.**

أما وقد أوضحنا طرفاً مما نفهمه من هذه الفاء التي جاءت رابطة للجواب مقترنة به، فلنبيِّن ما نفهمه من كلمة **(فليعبدوا)**، وطرفاً مما تُشير إليه كلمة **(العبادة)**:

ليس معنى العبادة بمرادف للطاعة دون أن يكون بين اللفظين فرق من الفروق، أو شيء من الاختلاف، بل لكلِّ لفظ إشارته، ولكلِّ لفظ معانيه ومقاصده.

وتوضيحاً لمعنى العبادة وتبياناً لبعض الفروق بينها وبين الطاعة نقول:

قد يُطيع الجندي آمره، والطالب معلِّمه، والزوج زوجها في أمر من الأمور، فيُنفِّذْ كل منهم ما أُمر به تطبيقاً لما يفرضه عليه النظام وما يقضي به الواجب، دون أن يُقصِّر في الأمر أو ينقص فيه، ومع ذلك قد يكون في طاعته هذه غير مُذعن النفس ولا راضياً بالأمر، لكنها الظروف ومقتضيات الحال اضطرته إلى التطبيق دون تردُّد أو تأخير.

ومن هنا يتبيَّن لنا طرف من معنى العبادة والطاعة، فالطاعة تقتضي التطبيق للأمر، والعبادة تجمع إلى التطبيق الخضوع النفسي والإذعان المعنوي.

ومما ينطوي أيضاً تحت العبادة من معان إلى جانب الطاعة المقرونة بالخضوع النفسي والإذعان، أن تكون الطاعة شاملة سائر المأمورات دون أيَّة مخالفة من المخالفات، فليس يُعَدُّ عبداً خالص العبودية من يُطيع في أمر من الأُمور ويُخالف في أُمور أُخرى لم تَتَّفق مع رغائبه وهواه. وليس يُعَدُّ عبداً كامل العبوديّة من يُطبِّق الأمر تطبيقاً على حسب الظاهر ونفسه غير مطمئنة لهذا التطبيق، وهو في سرِّهِ غير راضٍ بهِ ولا مُذعِنْ.

العبادة الحقَّة لله تقتضي الطاعة والتطبيق مقترنة بالخضوع النفسي والرضا. العبادة الحقّة تقتضي العبادة الشاملة لسائِر الأوامر غير مشوبة بشيءمن المخالفات وقد وصف الله تعالى رسوله الكريم بوصف العبودية بسورة الإسراء، فقال تعالى: **[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..]**(٤).

وأشار تعالى في موضع آخر من كتابه الحكيم مبيّناً ذلك المقام العالي، مقام العبودية الذي وصل إليه سيد العالمين، إذ قال تعالى: **[وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً، قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً]**(٥) .

وممَّا شرعه لنا الشارع في كل صلاة نُصلِّيها أن نعرِّف أنفسنا ونُذكِّرها بذلك المقام الذي حازه الرسول صلى الله عليه وسلم، فتتشهد له صلى الله عليه وسلم بمقام العبودية والرسالة، من بعد أن تشهد لله تعالى بمقام الألوهية والوحدانية، وذلك ما اشتملت عليه كلمة: **(أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)**.. تقولها وأنت في آخر مرحلة من مراحل الصلاة.

وهكذا فإذا أنت أقررت معترفاً بأنك عبد الله، وذلك ما يتردد دوماً على لسانك عند قولك **(إياك نعبد)** في الصلاة، فمعنى قولك وإقرارك هذا أنك طائع لله تعالى بخضوع واستسلام، معاهده على تطبيق سائر الأوامر دون أية مخالفة من المخالفات.

وبناءً على ما قدَّمناه من بيان لمعنى كلمة **(العبادة)** نقول:

تتطلَّب كلمة **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}** من بني الإنسان الذين توصَّلوا إلى الإيمان من بعد نظر وتفكُّر واستدلال، أن يطيعوا أوامر الله تعالى مستسلمين مذعنين، طاعة شاملة في سائر الأوامر دون استثناء، والحقيقة أن عبادة الله تعالى لتدخل في جميع ما يُباشره الإنسان من أعمال، وهي لا تقتصر على أعمال الصوم والصلاة والحج والزكاة، إنها لتدخل في المبيع والشراء، في الشركة والكفالة، في الديْن والحوالة، إنها لتدخل في معاملة البنين والزوجة والأب والأم والأخوة، وفي معاملة الجار والشريك والقريب والبعيد، إنها لتدخل في الأكل والشرب والنوم والمشي في الطريق والنزهة، حتى إنها لتدخل في الحرب والسلم والقتال، لا بل في كل عمل من الأعمال، وكل عمل إذا أنت عملته وراعيت في تطبيقه الأصول التي شرعها الله تعالى على لسان رسوله الكريم فقد عبدت الله تعالى فيه.

وإن أنت طبَّقت أوامر الله تعالى وسنة رسوله الكريم في كل ما يبدو لك من ظروف، وما يعرض لك من أعمال فأنت عبد خالص العبودية، وأنت السعيد حقاً لأن أوامر الله تعالى كلها تدور حول راحتك، وتتضمَّن ما يصل بك إلى السعادة، سعادة الدنيا والآخرة، ومن أدرى بما فيه سعادتك ومن أعلم بما فيه صلاحك وخيرك من الله، الذي خلقك وأوجدك وأوجد الكون كله من أجلك، وكلما ازداد المرء علماً بالله وشهوداً لرأفته ورحمته، ازداد حرصاً على تطبيق أوامره تعالى وتقيُّداً لشرعه وبالغِ طاعته وعبادته، لذلك وحبّاً منه تعالى بك وحرصاً عليك، أراد أن يزيدك

تعالى معرفةً به فقرن إلى كلمة **(فَلْيَعْبُدُوا)** كلمة **(رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)** وهذا ما سنشرحه لك بعض الشرح فنقول:

الرب: هو الممد بما يلزم لبقاء الحياة ودوامها، تقول: ربّ القوم أي: ساسهم ودبَّر شؤونهم فكان بما يقوم به من أعمال تدور حول تأمين مصالحهم، وما يباشره من مهمات يتوفَّر لهم معها دوام النماء وبقاء الحياة وصلاح الأحوال، سيّداً لهم جميعاً ومربّياً لهم كافة.

وقد أطلق الناس هذا اللفظ على من تتوفر فيه هذه النواحي جزئياً، من حيث قيامه على شؤون مجتمع من المجتمعات أو عمل من الأعمال، فقالوا: ربُّ الأسرة، رب العمل، يريدون بذلك السيد والرئيس الذي على حسن إشرافه وحكيم سياسته، ووافر عنايته ودوام إمداده بما يلزم هذا المجتمع أو العمل لدوام البقاء وديمومة الحياة الطيبة، ويكتب له التقدُّم والنماء المطَّرِدِ.

أما كلمة **(ربَّ)** إذا أنت نظرت إليها من حيث كونها اسماً من أسماء الله تعالى، فلا ريب أنك ترى فيها الشمول، كما ترى فيها الأصل اللغوي الذي وُضِعَ من أجله هذا اللفظ.

ترى فيها المعاني وقد تبدَّت لا على سبيل الاستعارة والمجاز بل على وجه الحقيقة الذي وُضِعت من أجله هذه الكلمة.

فالربُّ الحقيقي هو الله سبحانه، يُربِّي الخلق كافة بدوام إمداده إياهم بما يلزمهم، وتأمين ما يتوقف عليه حياتهم ووجودهم وتقديم ما يضمن نماءهم المطرد وبقاءهم.

فهو سبحانه بما يمدُّ به الخلائق كلها، سواء كان ذلك بما يلزم في طعامها وشرابها أو تنفُّسها واستنشاقها، أو تأمين الجو المناسب والوسط اللازم لها، أو توفير شرائط الحياة التي لا تعيش إلاَّ بها أو المجالات التي تسعى فيها لكسب رزقها هو ربُّها حقاً.

وإن شئت أن تتعمَّق أكثر من هذا، فانظر إلى جسومها ذاتها وانظر إلى ما تؤمِّنه يد التربية الإلهية لكل عضو من أعضائها في كل طرفة وحين، وتعمَّق أكثر فأكثر وانظر إلى كل ذرَّة، لا بل إلى كل حجيرة من حجيراتها تجد أن هنالك يداً مُشرفة تمدُّ كلاً بما يلزمه من رزق، وما يتطلَّبه بقاؤه وما يتوقف عليه وجوده، كل ذلك بهندسة عجيبة وتناسق تام واتساق مُحكم، حتى إذا ما توسَّعت في النظر وتوغَّلت وجدت الإمداد الإلهي بالحياة سارياً في كل ذرَّة من ذرَّات الوجود، وإذا الكون كله قائم بدوام هذا الإمداد سائر في أعماله وفق سياسة حكيمة تلفُّه الرحمة وتضمُّه العناية الإلهية، ويسري إليه الإمداد بالحياة بصورة متواصلة.

وذلك طرف مما نفهمه من كلمة **(ربَّ)** من حيث كونها اسماً من أسماء الله تعالى، وليس يُحصي معاني هذا الاسم الرفيع مُحصٍ ولكن يُدرك كلٌّ بحسب ما شاهد ورأى، وليس لاسم من أسماء الله تعالى حدٌّ ولا انتهاء.

أما كلمة **(البَيْتِ)** فهي تُشير بمعناها المتواضع إلى المسكن، يبيت فيه المخلوق ليلاً فيجد فيه الطمأنينة والسكون ويأوي إليه فيطيب نفساً بما فيه من راحة وأمان.

وقد سمَّى الله تعالى الكعبة الشريفة بيتاً لأن النفوس المؤمنة إذا هي أوتْ إليها اجتمعت بإمامها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت بمعيته على الله تعالى، وهنالك تجد بقُربها من خالقها وإقبالها عليه سكوناً واطمئناناً، وتشعر وهي في حضرة الرحيم الرحمن براحة وأمان، وإذا هي في سرور وسعادة لا تجدها إلاَّ في هذا البيت الحرام.

هذا وقد جاءت كلمة **(البَيْتِ)** في الآية الكريمة التي نحن بصددها لا لتشير إلى بيت الإنسان الصغير الذي يأوي إليه مع زوجه وبنيه، ولا إلى الكعبة البيت الحرام الذي يجب على الإنسان أن يستقبله في صلاته، متجهاً منه إلى خالقه ومربِّيه، بل إنما جاءت لتُشير إلى معنى أعم يُقرِّره مسرى الآيات ويؤكِّده جو الكلام الذي وردت فيه.

إنها تشير إلى الكون كله من حيث كونه بيتاً لهذا الإنسان، أعدَّ الله له فيه جميع ما يؤمِّن له راحته وسائر ما يتطلَّبه ويحتاجه. فكلمة **(البَيْتِ)** هنا وعلى حسب ترابط الآيات المتقدمة، تشمل الكون كله إذن، السموات وما فيها، والأرض وما عليها.

فإذا الكرة التي تحمل هذا الإنسان إنما هي أرض هذا البيت. وإذا السماء سقفه والشمس المضيئة سراجه وضياؤه. والقمر نوره وتقويمه يبيِّن المواقيت والحساب.

وإذا الكواكب مصابيحه وزينته، وإذا الأنهار والينابيع ماؤه، والمناطق القطبية مستودعات مياهه ومبرِّداته، والبحار المحيطة خزاناته ومُلطِّفات جوّه ومرطِّباته، وهكذا عدِّد ما شئت تجد الكون كله فيه جميع ما تتطلَّبه وما يوفِّر لهذا النوع الإنساني الوجود والبقاء والحياة.

وتُشير كلمة **(ربَّ هَذَا البَيْتِ)** هنا لا إلى تربية هذا الإنسان فحسب بل إلى تربية كل هذا الكون، من أرض وسماء وشمس وقمر ونجوم وكواكب وأجرام، من إنسان وحيوان، من جماد ونبات، من معادن وأتربة وأشجار، إنها تُشير إلى البحار والأنهار، إلى العيون والآبار، إلى السهول والجبال، إلى مناطق القطبين المتجمدين وثلوجها التي تذهب بالعقول لبارئها وتأخذ بالأبصار إلى كل شيء تراه في هذا الكون أو لا تراه، إنها تُشير إلى تربيته تعالى كل ما في الكون من حيث هو وحدة مؤتلفة الأجزاء، ومن حيث هو بيت لهذا الإنسان فإذا البشر جميعاً وقد أحاطت بهم تلك العناية الإلهية، تُوفِّر لهم سائر ما يحتاجونه بحياتهم، بمثابة أسرة واحدة تعيش في بيت واحد والله تعالى رب هذا البيت، والمشرف عليه فكل من فيه عباده وجميعهم مفتقر إليه. «والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

وقد أراد تعالى أن يزيدك علماً بفضله عليك، ويلفت نظرك إلى مزيد إحسانه إليك فقال تعالى: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}.**

وتشير كلمة **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}** في بعض نواحيها إلى بعض عنايته بك من حيث تأمين طعامك.

فإن أنت نظرت إلى الأغذية التي نتناولها من الحبوب والخضار وفكَّرت في الأطعمة التي تأتيك من الفواكه والأثمار، رأيت من عنايته تعالى بك العجب العجاب، وعظَّمت تلك اليد المحسنة التي تواصل فضلها عليك دون انقطاع.

فانظر إلى هذه الخضار التي اختلفت أشكالها وتنوَّعت ألوانها وتعدَّدت منافعها وطعومها، ينبتها لك ربُّك في مختلف الفصول بصورة تتلاءم مع ما يتطلَّبه جسمك في الربيع والصيف والخريف والشتاء.

وانظر إلى هذه الحبوب التي يُخرجها لك ربك بكميات مُتناسبة مع الحاجة، ولكل مخلوق رزقه، ولكل إنسان حظُّه منها حسب اللزوم والاحتياج، وانظر إلى هذه الأثمار التي اختلفت منتجاتها، فمنها الذي يعطيك زيتاً ودهناً، ومنها ما يعطيك سُكَّراً، ومنها الذي تستخرج منه شراباً حلواً، ومنها ما تتفكَّه به تفكُّهاً، تُرى من الذي ذرأ لك في الأرض بذورها، وخصَّص لكل نوع من هذه البذور بما خصَّصه به من صفات، وجعل له ما جعل من ألوان وأشكال وخصائص ومنافع؟.

هل فكَّرت في هذا وهل نظرت فيه؟.

هل حاولت أن تُعدِّدْ أنواع ما خلقه الله تعالى لك من نباتات، حتى إذا ما وجدت نفسك عاجزة أن تحدَّها بحدٍّ أو تحصيها بعدٍّ رجعت من هذا وبنفسك تقدير لعنايته تعالى بك وواسع فضله عليك. على أن عنايته تعالى بك من حيث تأمينه طعامك من النباتات لا تقتصر على أن أوجد لك هذه الأنواع، وذرأ بذورها في الأرض، بل إن كلمة **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ}** تُشير إلى جميع العوامل التي تُساعدها على نمو هذه النباتات وخروجها من الأرض.

فالنباتات تحتاج في خروجها ونموِّها إلى عوامل عديدة يضيق عنها الحصر، ونُعدِّد منها على سبيل التذكير ما نُعدِّد فنقول:

أتظن أن النباتات تظهر إلى عالم الوجود وتستيقظ أجنَّتها من البذور لولا تلك الأمطار والثلوج يتناوب هطولها على الأرض حيناً بعد حين، حاملة في طياتها ما تحمل من المواد المليئة بالغذاء والخيرات؟.

وهل تظن أن الماء النازل من السماء يكفي وحده لخروج النباتات، لو لم يعقب الأيام الماطرة صحو ودفء، ولو لم تُساند الأمطار والثلوج حرارة الشمس وما ينبعث عنها من اشعاعات تخترق ذرَّات التراب، وتنفذ إلى مواضع البذور فتبعث فيها الحياة؟.

وهل تحسب أن الأمطار والثلوج الغزيرة مع ما يتلوهما من إشعاع وحرارة يكفيان في خروج النباتات لولا الهواء يتخلَّلُ ذرات التراب، فيساعد الأحياء الصغيرة التي تعمل في عالم الجذر على القيام بوظائفها، كما يُحيط بالساق والأوراق فيُقدِّم لها في الجو المحيط بها ما يُقدِّم من مواد؟. وهل تعلم أن ضياء النهار الذي لا يمكن أن ينبت النبات بدونه لا يكفي وحده، وأنه لا بدَّ للنباتات من الظلام والضياء يتعاقبان في ليل ونهار كما لا بدَّ له من الحرارة والبرودة يتناوبان على الدوام؟.

فمن الذي أوجد هذه العوامل كلها تعمل متضافرة بنظام عجيب؟. ومن الذي جعلها يُساند بعضها بعضاً في إطار دقيق ووفق نظام مُحكم من سنن وقوانين؟.

وأيّة يد عظمى تمتدُّ إلى كل شيء، وتمدُّ كل شيء في هذا المصنع الكبير والمعمل العظيم، فتجعله يقدِّم لك ما يقدِّم على أكمل وضع وبأتمّ تنظيم؟.

من الذي جعل في الشمس ما جعل من أشعة وحرارة؟.

من الذي يمدُّ تلك الكتلة العظيمة الهائلة بما يمدُّها به فإذا هي دائمة التوقُّد دائبة الإشعاع؟.

من الذي أوجد في هذا الهواء ما أوجد من غازات، لو لم تكن مشحونة فيه لما نبت النبات ولما عاش؟.

من الذي جعل في الأرض هذه التربة وقد حوت مختلف الأملاح والعدد العديد من المواد، التي تختلف تركيباً باختلاف ما ينجب فيها من نبات؟.

من الذي خلق في التربة من أحياء صغيرة مختلفة الأنواع متعددة الوظائف والأشكال، حتى أن الحفنة الصغيرة من التراب لتحتوي على ملايين الملايين من هذه المخلوقات التي يُسمُّونها بالجراثيم النافعة، تعمل كلها في الوسط المحيط بجذر النبات فتؤمِّن له المواد الملائمة المناسبة، فتجعلها في حال قابل للتمثُّل والامتصاص؟.

من الذي يُرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته تقلُّ السحاب المشحون بالخيرات؟.

من الذي يؤلِّف بين السحاب المسخَّر بين السماء والأرض فيجعله رُكاماً فترى الودق (**المطر**) يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون، وإن كانوا من قبل أن يُنزَّل عليهم لمبلسين؟.

من الذي يسوق الرياح الخفيفة تُلقِّح الأزهار، ويبعث الفراشات والحشرات تسعى بين النباتات متنقِّلة في وظائفها، التي يطول بنا الشرح لو أردنا أن نُفصِّل فيها، قائمة بما تقوم به من مهمات وأعمال؟.

من الذي يوحي إلى النحل أن تطوف على الأشجار تأكل من كلِّ الثمرات، فتساعد على انعقاد الأزهار وتحوِّلها إلى أثمار؟.

من الذي يرسل الطيور المختلفة الأنواع المتعددة الوظائف تسعى في الحقول بين الزروع، وتنتقل إلى أغصان الأشجار وتنبش التربة ملتقطة ما فيها من ديدان وحشرات انتهت وظيفتها، وانقضى عملها فتذهب بها إلى حيث الفناء؟.

من الذي يزرع هذه الحبة والنواة فيفلقها ويكشف عنها ما يُحيط بها من قشر قوي صلب، ثم يخلق لها جُذيراً يتفرَّع ممتداً في الأرض باحثاً عن الغذاء، ويجعل لها سويقاً يشقّ لنفسه الطريق في الهواء، ثم يُنشئ لها البراعم والأوراق فإذا هي بعد حين نبتة كاملة، أو شجرة باسقة تدر عليك ما تدر من خيرات؟.

ذلك كله طرف مما انطوت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}.**

فانظر إلى الجو في تبدُّلاته وتناوب الحرارة والبرودة عليه، وانظر إلى تصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض.

وانظر إلى الليل والنهار في تعاقبهما واختلافهما، وانظر إلى الشمس والقمر فيما ينبعث عنهما، وإلى الحشرات والنحلات في سعيها وطوافها.

وإلى الطيور في هجرتها وتنقلها.. وإلى الجراثيم تعمل في خفايا التراب.

انظر في ذلك كله مفكِّراً متعمِّقاً، ترى أن هنالك يداً خفية تعمل من أجلك، وتفقه طرفاً من معنى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها من حيث إمداده تعالى إياك بما يمدُّك به من أغذية متنوعة من النباتات.

وإن شئت أن تتوسع في معنى هذه الآية الكريمة أكثر فأكثر، فانظر إلى ما يؤمّنه لك تعالى من غذاء من الحيوانات.

انظر إلى الأنعام يُسقيك الله مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

انظر إلى ما جعله الله تعالى لك في لبنها من زبدة وسمن وجبن وما تعطيك من لحم ودهن.

انظر إلى الدجاج ذلك المصنع العجيب ينتج لك البيض وفيه من عناصر التغذية أكبر نصيب.

انظر إلى البحر وما فيه من لحم طري مختلف الأنواع.

انظر إلى العسل يجمعه لك النحل من مختلف الأزهار والثمرات، كل ذلك إذا أنت نظرت فيه وجدت للفكر مراتع خصيبة وميادين واسعة ومجالات عديدة.

ولك في هذه الآية الكريمة مجالات أخرى، وقد سهرت عليك العناية الإلهية تُطعمك من جوع وأنت صغير ضعيف.

ولك فيها مجال أوسع يوم خرجت من بطن أمك وأنت طفل رضيع، ولك فيها مجال أوسع وأوسع وأنت في بطن أمك جنين.

وما جميع ذلك إلاَّ طرف يسير مما تُشير إليه هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ}.**

أما وقد فصَّلنا في هذه الكلمة بما يتسع له المجال، فلننتقل إلى الشطر الثاني من هذه الآية الكريمة وهو كلمة: **{مِنْ جُوعٍ}**، بآية **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}**، التي توحي لنا بنعمتين من نعمه تعالى علينا وهما: الجوع والإطعام.

وإذا أردت أن تلمَّ بطرف من المعنى: فتصوَّر أنك أمام مائدة تحار الأعين بما عليها من ألوان الطعام من خضار عديدة ولحوم منوَّعة وفواكه مختلفة وأثمار، وأن هذه الأطعمة قد طُهيت وحُضِّرت على أكمل وجه وأحسن ترتيب ونظام فما هي يا تُرى فائدة المدعو إليها إذا كان امرأ مريضاً عليلاً أدْنفه المرض، وحالت بينه وبين الرغبة في الطعام والميل إليه العلَّة، فإذا به لا ينعم بما يشم من هذا الطعام من رائحة، فضلاً عما يجده تجاهه من اشمئزاز وكراهية، وإذا به لا يجد في معاينته له شيئاً من ميل أو شهوة، كما لا يستطيع بسبب ألمه أن يجد لطعمه أدنى لذة، أقول:

لولا الجوع الذي يخلقه الله تعالى في الإنسان لكان هذا حاله تجاه ما خلق له الله تعالى من أطعمة، وما وضعه بين يديه من فواكه وأثمار، لكن من

تمام النعمة والفضل الإلهي أن جعل فينا الميل والرغبة وخلق لنا الشهوة، والشعور واللذة، فإذا نحن في تناولنا ما نتناول من أطعمة نذوق منها ما نذوق، من طعم لذيذ إلى جانب ما ننعم به من رائحة ذكيّة ومنظر شهي وتغذية.

وهكذا فكلمة **(مِنْ جُوعٍ)** إنما تُشير في بعض نواحيها إلى ذلك الفضل الإلهي الذي تفضَّل الله تعالى به على الإنسان، إذ جعله بسبب هذا الجوع ينعم ويتذوَّق ويشعر بلذة الأطعمة وما خلق الله تعالى فيها من طيب المذاق.

ومما ينطوي تحت كلمة **(مِنْ جُوعٍ)** وقد وردت في هذه الآية الكريمة ذلك التنظيم الإلهي الذي نظَّمه تعالى لهذا الإنسان، إذ جعل فيه من الأعضاء والأجهزة، ومن الغدد ذات الإفرازات المختلفة ما يهضم الأطعمة ويُحوِّلها إلى مادة سهلة الامتصاص، ممكنة التمثُّل أو الاحتراق، فإذا الجسم بعد حين، وبسبب هذا العمل الدائب والجهد المستمر يتطلَّب ما يتطلَّب من طعام يعبِّر عنه الجوع الذي يشعر به الإنسان، فمن المشرف يا تُرى على هذه الأجهزة المختلفة التي تعمل في جسم هذا الإنسان؟. ومن المنظِّم لهذه الغدد تُفرز ما تُفرز وفق معايير دقيقة حسب اللزوم والاحتياج؟.

ومن القائم على هذا الجسم يُشرف عليه في قيام كل عضو من أعضائه بما خُصِّص له من أعمال، فإذا الجسم كله وحدة مترابطة، وإذا هو بين الحين والحين يُشْعِركَ بسبب الجوع ما يتطلَّبه من أغذية؟.

من المشرف على هذه الأجسام كلها يُدير أجهزتها وأعضاءها بتلك الدقة الفائقة، فإذا هي بآن واحد تعمل سائرة بذلك النظام الدقيق، وإذا هي تُشعر صاحبها بسبب الجوع بما يتطلَّبه من غذاء ووقود، وقد بلغت في عددها لا بل فاقت مليارات المليارات وملايين الملايين.

ما هذه اليد التي تُطعم من جوع كل عضو من أعضائك وكل جهاز من أجهزتك، لا بل كل حجيرة من حجيرات جسمك، وكل كريَّة تقدِّم لكلٍّ ما يتطلَّبه وبقدر الحاجة، فإذا كل ما في جسمك من أجهزة وأعضاء، وإذا كل ما فيه من حجيرات وكريات، يأتيه حقه وينال رزقه حسب اللزوم والاحتياج؟.

إذن: فكما أن الله تعالى خلق فينا الجوع بما أوجد لنا من أعضاء وأجهزة وخلق لنا من العصارات والأنظمة فتهضم أعضاؤنا الطعام وتذهب بفضلاته، بعدها ينبعث الجوع فهو إلى جانب ذلك يطعمنا فيمدُّنا بما نحتاجه من فواكه وأثمار، ويخلق لنا ما يخلقه من نعيم وخيرات، إذ بعد انبعاث الجوع فينا تتجدَّد الشهوة للطعام مجدَّداً وبهذا نتمتَّع بما أعد الله لنا من النعيم والإكرام.

أقول: وإذا كان هذا إشرافه تعالى على كل جهاز من أجهزة جسومنا وكل عضو من أعضائه، لا بل كل ذرَّة من الذرات، فهل يُعقل وهل يُتصوَّرُ أن يكون هذا الإشراف تامّاً كاملاً على الأجسام فتعمل أجهزتها الداخلية في وظائفها وفق ذلك النظام، وألاَّ يكون تحضير الأرزاق لهذا النوع الإنساني لا بل لهذه الخلائق كلها متناسباً مع اللزوم وبقدر الحاجة؟.

هل من المعقول أن يُحيط تعالى علماً بجميع ما في جسمك من أجهزة وأعضاء وحجيرات وكريات فيرى سيرها وأعمالها ويمدُّها جميعها برزقها وينساك أنت؟. أولا يُهيِّء لك ما تحتاجه من رزق وما تتطلَّبه من طعام وغذاء؟. أتظن أن الزروع تنبت، والأشجار تُثمر، والأغنام والأبقار تتوالد ومصانع الرزق تعمل وتُنتج في هذا الكون جزافاً وبغير حساب، وأن الإنتاج يجري بغير نظام وقانون؟.

وإذا نظرت أنت في جسمك نظرة ورأيت ذلك النظام البديع القائم عليه، وعلمت أن التوزيع فيه يجري بنظام دقيق فلا بدَّ أنك ترى من بعد نظرتك هذه أن اليد المشرفة على هذا الكون عليمة بكل إنسان ومخلوق، وهي تهيِّء لكل فرد رزقه، وتُؤمِّن له حاجته، فلا تنسى مخلوقاً ولا تغفل عن

إنسان، فهي تُطعم من جوع كل مخلوق وتُنزِّل لكلِ مخلوق رزقه. قال تعالى: **[وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]**(٦).

وهكذا فكلمة **(مِنْ جُوعٍ)** تضمُّ في طياتها معانٍ عدَّة فهي تُشير إلى ما أوجده الله تعالى في هذا الإنسان من ذوق ولذة، وإلى ما يقوم عليه جسمه من تنظيم وما يجري فيه من عمليات هضم وامتصاص وتوزيع، وأن كل ذلك يجري بإحكام ودقة، كما تُشير إلى طرف آخر، إلى أن تلك الإرادة الإلهية العليا إنما تُقدِّم الأرزاق للمخلوقات حسب اللزوم وبقدر الحاجة.

فإن أنت نظرت إلى هذا الكون ورأيت ما بين أجزائه من إيلاف، وإن أنت نظرت إلى هذه الأرض وهي تنتقل بك في هذا الفضاء العظيم تتم رحلتها في أوقاتها المعيَّنة، ولا تتجاوز المدة المحدودة.

وإن أنت دقَّقت في ذلك النظام الذي يتم بموجبه تحضير الأغذية، وما يشترك في ذلك من عوامل مختلفة، وإن كل ذلك يعمل في إطار دقيق من قوانين ثابتة.

وإن أنت رأيت أن هذه الأغذية التي نتناولها يجري توزيعها لكل ناحية وذرَّة من جسومنا حسب اللزوم والحاجة. أقول:

إن أنت نظرت إلى هذا كله وفكَّرت فيه، وذلك ما أرادت هذه السورة الكريمة أن تُلفت نظرك إليه " أَمِنتَ على نفسك من انقطاع الرزق" وأدركت طرفاً من قوله تعالى: **{وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**. وعلمت أن تلك الإرادة الإلهية ما كانت لتتفضَّل عليك بهذا الفضل ثم تنساك وتغفل عن إمدادك بالرزق. وكلمة **{وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**، تعرِّفنا بذلك النظام الذي رتَّبه تعالى لهذا الوجود، وبتلك السنن الثابتة التي يتمُّ بها خلق الأغذية والأطعمة اللازمة.

هذه الأرض الدائبة الحركة، هذه الفصول المتجدِّدة منذ بدء الخليقة، هذه الأمطار التابعة في نزولها لكثير من القوانين الجوية، وهذه الجراثيم النافعة التي تعمل على نموِّ الأغذية، كل ذلك يجعلنا نطمئن إلى تدبير الله،

فلا نخشى ولا نخاف فقدان الأغذية، ونعلم أن الذي خلق هذا الكونَ جعل له نظاماً ثابتاً مُطَّرداً، يتأمَّن به غذاؤنا ولا نخشى معه الخوف على الرزق.

فاطمئن قلباً بما خلق الله تعالى لك من نظام يتأمَّن معه لك الطعام والغذاء، ولا تخشَ أن ينساك ربُّك في يومٍ من الأيام، فما نسيك وأنت في بطن أمك جنيناً كما لم يَنْسَكَ يوم خروجك إلى الدنيا طفلاً رضيعاً، لكنها العناية الإلهية التي ترعاك وتحوطك ولا تغفل عنك طرفة عين، تقبض عنك حيناً وتبسط حيناً حُبّاً بك وعطفاً عليك، تُعاملك كما يُعامل الطبيب الناصح مريضاً عزيزاً عليه، يمنع عنه الطعام أحياناً ويحميه لا قسوة ولا ضنّاً، لكنها المصلحة وحسن الرعاية وجميل العناية تدعو الطبيب المخلص أن يعامل بتلك المعاملة.

فما بالك بمن خلقك وأوجد الكون من أجلك، وعُني بك تلك العناية الفائقة، قال تعالى: **[وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ]**[٧].

والحمد لله رب العالمين

---

[١] سورة الأحزاب: الآية: (٧٣).

[٢]. سورة الحشر: الآية (١٩).

[٣] سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

[٤] سورة الإسراء: الآية (١).

[٥] سورة الجن: الآية (١٩-٢٠).

[٦] سورة الحجر: الآية (٢١)

[٧] سورة الذاريات: الآية: (٢٠-٢٣).

تأويل سورة قريش

لنبدأ بمعجزة خلق الإنسـان ، هذا ما خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، خلق تعالى الإنسان نفساً وخلق لـه جسماً حيّاً ينبض بملكات ومواهب عُليا جسماً يفيض بالبصر والسمع والشم والذوق والحواس مزداناً بالفكر الجبَّار. كل ذلك من ماء وتراب فما أعظم هذا الرب الخالق المبدع خلق جسمه بإطعام أبيه وأمّه من مستنبتات الأرض، أكلوا من زروع وثمرات التراب والماء من الأرض لكي يؤلِّف بينه وبينها فيتآلف مع الأرض ومستنبتاتها ولا ينفر أو يتنافر فيتقبَّل العيش بـلذة وشغف ، ويتآلف ويألف هذاالكون إيلافاً بمطاعمه أي بمآكله ومشاربه ، فيهنأ ويطيب له العيش .

فما أعظم من ألَّف وآلف بين أجزاء هذا الكون الفسيح المتآزر المترابط المتماسك بكـافة مخلوقاته ليصبح لهذا الإنسان نظراً واستنشاقاً وذوقاً وحاجة للأكل من نتاجه .

سورة قريش : إذ تبـدأ بتبيان هذا الفضل العظيم والخير العميم من رب العالمين إلينا ، مظهرة فضـل الله ورحمته وإحسانه تعـالى وتسييره الخيرَ لنا ، وكيف آلـف جميع ما في الكون وسـخَّره لنا فجعل للصيف والشتاء رحلتهما السنوية الموسمية المترعة بالخيرات وخلق لنا حاسة الجوع لنطلب الطعام وأمَّننا من خوف على رزقنا ووعدنا بإرسال السماء مدراراً وبإمدادنا بفيوضات الخيرات شـرط أن نعبد ربَّ هذا البيت العظيم، أي: الكون كله، إذ بطاعته تعالى والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه الخير كله، وفيها سعادة الدنيا ونوال حياة ونعيم الآخرة.



السعر : ١٥ ل س